إجابة سؤال ا.د. أبو القاسم رشوان "تاريخ الأدب الجاهلى"- الفرقة الأولى " أصليون "

فإن العرب قد عرفوا الكتابة بدرجات متفاوتة وشيوع متفاوت أيضا ، وقد كان منهم كتاب وقراء وحفظة ، وذلك فى العصر الذى نتحدث عنه ، وهو العصر الممتد إلى حوالى ١٥٠ سنة قبل البعثة النبوية ، وهى الفترة التى عاش فيها كبار الشعراء من أمثال امرئ القيس ، وطرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وعمرو بن قميئة ، والمتَلمِّس ، ممن وصلنا شعرهم وفيه ما فيه من إشارة إلى الكتابة وأدواتها . من ذلك قول المرقش الأكبر (٢) :

الدار قَفْر والرسوُم كما رَقّشَ فى ظهْر الأديم قلَمْ

وقول طَرَفَة : (٣)

كسُطور الرَّقّ رَقَّشَــهُ بالضّحَى مُرَقِّشٌ يَشِمُه

وقال أمية بن أبى الصَّلتْ يمدح بنى إياد : (٤)

قَوْمُ لهمْ ساحةُ العراق إذا ساروا جميعا والقِطُّ والقَلَم

وقال النابغة : يمدح الغساسنة النصارى : (٥)

مجَلَّتُهُم ذاتُ الإله ودينُهم قَويمُ فما يَرْجون غيرَ العواقِب

وقال الحارث بن حلزة : (١)

واذكروا حِلْف ذِى المَجاز وما قُدِّمَ فيه ، العهودُ والكُفَلاء

حذَر الجَوْر والتَّعَدِّى وهل ينْ قُضُ ما فى المهارقِ الأهواء

وقال قيس بن الخطيم : (٢)

لما بَدتْ غُدْوَةَ جباهُهُمُ حنَّتْ إلينا الأرحامُ والصُّحُفُ

وقال امرؤ القيس : (٣)

لِمَنْ طَلَلَ أبْصَرتْهُ فَشَجَانِى كَخَطِّ زَبُور فى عسيبِ يَمَانِ

---

(٢) المفضليات : القصيدة ٥٤

(٣) الديوان صـ ١٤٩ تحقيق د. على الجندى **الرقَّ** : الصحيفة . **رقشه:** زينه وحسنه **يشمه** : يجعله كالوشم .

(٤) لسان العرب : قطط .

(٥) الديوان صـ ٤٧

(١) شرح المعلقات العشر : الشنقيطى ١٨٠

(٢) المهارق : الصحف .

(٣) أشعار الستَة الجاهليين : الشنتمرى : ٨١ : الزبور الكتاب .

وقال أيضا : [٤]

أَتَتْ حِجَجٌ بعدى عليها كخطِ زَبوُر فى مَصاحفِ فاصبحتْ رُهبْان

٢- فقد عَرفَ العرب الكتابة وأدواتها ، من سعف وجلد وحجارة وغير ذلك ، مما تيسر لهم فى ذلك الوقت وإنما يُعرف الشئ للحاجة إليه والممارسة الفعلية ، فماذا يكتب العرب إذا لم يكتبوا شعرهم ، وليس لديهم أعزُّ منه فهو ديوانهم الذى فيه أحْسابهم وأنسابهم ، ومكارمهم ومفاخرهم ، وهو علمهم الذى لا يعرفون علما غيره ، وقد فعل بعضهم ذلك منذ الحياة الأولى للشعر الجاهلى ، فقد كان المرقش الأكبر وهو من أقدم الشعراء " على علم بالكتابةَ والقراءة ، أنه تعلم على يد نصرانى من الحيرة ، ويبدو أنه كان يُنمق كتابته ، فسمى من أجل ذلك المرقّش ، إذ الترقيش معناه التزيين والتنميق " [٥] .

٣- عرف العرب إذًا التدوين من عهد بعيد شأنهم فى ذلك شأن جميع أمم الأرض وخلق الله ، ودوّنوا أشعارهم إن لم تكن كلها فاغلبها ، وفى تدوين القرآن وكتابته ثم جمعه فى مصحف واحد ، وعدد الكتابين فى ذلك الوقت ما يشهد لهم بذلك ، ولقد شهد القرن الأول الهجرى منذ بدايته نشاطا ملحوظا فى سوق الكتابة ، حيث توفّرت بعض أدواتها ، ووُجد من يتجرّون فيها ، وأصبح الناس يرددون كلمات من مثل الدفتر والكُراسة وخِزانة الكتب وهى كلمات يطلقونها على ما نطلقه الآن ، ويفهمون منها ما نفهمه الآن . [١]

وكما دوّن الأجداد القرآن الكريم دونوا الحديث الشريف بعد فترة تمرسوا خلالها بأسلوب القرآن الكريم وفقهوه لفظا ومعنى ، وتمكن من قلوبهم وعقولهم ، حتى صارت لديهم القدرة بالعلم والحس والذوق على التفريق بين القرآن وغيره من العلوم بمجرد السماع .

وما يقال عن تدوين الحديث من الممكن أن ينسحب على كتابة التفسير إلى حد ما ، متمثلا فيما خلفه ابن عباس وعَرْوة بن الزبير من تفاسير ، فلا يعقل أن تقوم مدرسةَ كاملة فى التفسير لابن عباس ، معتمدة على الرواية وحدها لأن حفظ التفاسير وروايتها أمر فى غاية الصعوبة ، بخلاف حفظ القرآن والأحاديث والأشعار التى وجدت لتحفظ ، وما فيها من خصائص فنية وأسلوبية ، وما اشتملت عليه من معان يساعد على ذلك .

ومما يتصل بتدوين القرآن الكريم والحديث الشريف الحديثُ عن المغازى والسير الذى بدأ كجزء من تفسير القرآن ، حين يتعرض المفسر لبيان الأسباب والأحوال والوقائع ، لكنه فيما يتعلق بغير التفسير يكون تاريخا خالصا قصد لذاته مستقلا عما عداه ، وكان أول من اهتم بذلك عروة بن الزبير ، وأبان بن عثمان المتوفى سنة ١٠٥ هـ ، ـ والمغيرة بن عبد

---

(٤) أشعار الستة الجاهليين : الشنتمرى : ٧٨ **العسيب** : جريد النخل .

(٥) ديوان بنى بكر فى الجاهلية والإسلام . محمد عبد العزيز نبوى .

(١) انظر : مصادر الشعر الجاهلى صـ ١٣٤-١٣٥

الرحمن ، ووهب بن مُنبّه وابن شهاب الزّهرى ، ثم موسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق صاحب السيرة النبوية .

وكتب المغازى والسير التى بين أيدينا لا تسوق خبرا مختصرا ، فهى حين تَعْرض لخبر من الأخبار تستقصى كل ما يتصل به ، وتستدل ـ دائما ـ على ما تقول بأشعار العرب ، وتفصّل القول فى أسماء من يرد ذكرهم ، كما تفصل القول فى كل ما يتعلق بزمان ومكان من تتحدث عنهم، فهى حين يذكر نسب النبى ـ مثلا ـ تقص قريش ثم مكة وعلاقتها بجيرانها منذ القدم ، ونشاط أهلها وضروب هذا النشاط ، ولا تترك شيئا دون أن تستشهد عليه بشئ من شعر الأوليين .

أما المفسرون فقد كانوا من أشد الناس حاجة إلى حفظ أشعار القدماء وروايتها ؛ لتفسير ما أُشكل عليهم من غريب القرآن ، وأقوالهم فى ذلك كثيرة ، من ذلك قول عمر بن الخطاب " عليكم بديوانكم لا تضلوا . قالوا وما ديواننا ؟ قال شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم " [١] . وقد قال ابن عباس : " إذا سألتم عن شئ من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب " [٢] ومع كل هذه الجهود المتصلة للحفاظ على نقاء الشعر الجاهلى وأصالته وصحة نسبته ، فان شكوكا كثيرة دارت حوله فى القديم وفى الحديث كما سوف نرى فى بحثنا الآتى ، حول قضية من أخطر القضايا التى ألصقت بالشعر الجاهلى وهي قضية الانتحال .

ثانيا : عند المحدثين

١- وكما كان ابن سلام أولَ من أثار موضوع الشك فى الشعر الجاهلى ـ من القدماء ـ بهذا الحجم الذى رأينا ، كان المستشرق " **مرجليوث** " أكثر من أثار هذه القضية فى العصر الحديث ، وذلك فى مقال له نشره سنة ١٩٢٥ وتحت عنوان (أصول الشعر العربى) والذى أدعّى فيه أن الشعر الذى بين أيدينا والمنسوب إلى شعراء العصر الجاهلى، إنما هو شعر إسلامى وضعه الوضّاعون ، ونسبوه إلى شعراء هذا العصر. وسوف نكشّف أهم ما فى مقاله فى النقاط الآتية معتمدين على ما جاء فى كتاب مصادر الشعر الجاهلى . وترجمة يحى الجبورى لمقال مرجليوث (أصول الشعر العربى) وترجمة د. عبد الرحمن بدوى [١] .

---

[١] تفسير البيضاوى سورة النحل الآية ٤٦

[٢] السيوطى ، المزهر ٣٠٢/٢

[١] ينظر : ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلى ٣٥٢-٣٦٧ . وأصول الشعر العربى ـ مرجليوث ـ ١٩٨٨ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت . ودراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى ترجمة عبد الرحمن بدوى ـ صـ ٨٧-١٢٩ ـ دار العلم ـ بيروت ١٩٧٩ .

١- إن وجود الشعر فى شبه جزيرة العرب قبل الإسلام أمر يشهد به القرآن من خلال نعت الكفار للنبى بأنه شاعر ملْهم من الجن ، وأنه كاهن يتنبأ بالغيْب . فالشاعر والكاهن والمجنون ـ عندهم ـ كلمات مترادفة تعْنى شيئا واحدًا . وقد وصف القرآن ما جاء به النبى بأنه " ذكر وقرآن مبين " ، ويستدل من هذا على أن غيره (الشعر) كان غامضا مبهما . فالشعر عندهم مرتبط بالوحى والإلهام ، والغموض والإبهام ، أى أنه غامض غير مبين ، وما وصل إلينا ليس كذلك ، الأمر الذى يدل على أنه شئ آخر مغاير لما كان قبل الإسلام .
ـ لو افترضنا أن هذا الأدب صحيح ، فكيف حفظ لابد أنه قد حفظ أما شفاها ، أو بالكتابة .

لا يستطيع أن يصدق أن الشعر حفظ عن **طريق الرواية** كما يدعى المؤرخون ، لأنه لم يكن هناك رواة محترفون " لأنه ليس لدينا سبب ، لأنْ نعتقد أن هذه المهمة وجدت ، أو أنها استطاعت أن تبقَى بعد العقود الأولى للإسلام " [١] لأن الإسلام نفّر من الشعراء ، وحذر من إثارة العصبيات ، وأغلب الشعر قائم عليها ، مما جعل الناس يعرضون عن حفظه وروايته ، استجابة لدعوة الإسلام . كما أن فى حياة الرواة الذين نقل الشعر عنهم كثير من السلبيات والاهتمامات ، والشكوك والطعون التى تجعلنا لا نثق بما روَوْا ، كما أن المصادر التى اعتمدوا عليها لا قيمة لها ، إذ يستحيل وجودها أصلا ، بعد أن قطع الإسلام كل وشيجة بين الناس والعصر الجاهلى . ويمضى " مرجليوث " فى التشكيك فى جميع الرواة واللغويين ، بدويهم وحضريهم ، كوفيهم وبصْريهم ، متقدمهم ومتأخرهم [٢] .

ـ لو كان الشعر قد وصل إلينا عن طريق **الكتابة** ، لم يكن هناك تناقض بين روايات تلك القصائد " إذا تصوّرنا أنها تنتشر عن طريق الكتابة بانتظام" [٣] ـ كما أنه لو كان كتب لكان للجاهلين كتب كثيرة ، وهو أمر نفاه القرآن " أم لهم كتاب فيه يدرسون " لأن الكتب نزلت فى طائفتين فقط : اليهود والنصارى .
ـ عملية الأدب تسير من غير المنتظم إلى المنتظم . والأساليب العربية التى وصلتنا ، النثر المسجوع ، والشعر الموزون ، ذات شبه بأسلوب القرآن ، وعملية الانتقال من أسلوب القرآن إلى الأسلوب المنتظم ، تبدو متفقة مع القياس ، فهو يريد أن يقول إن ما وصلنا لاحق على نزول القرآن، وأثر من آثاره .
" وإذا كان القرآن أوّل عمل فى اللغة العربية يكشف عن فن أدبى " فإن دعوى إعجاز فصاحته أمر سهل يفهمه الناس ، (إذ ليس لديهم ما يشبهه) أما إذا كان السامعون قد تعودوا من قبل على النثر المسجوع ، والشعر المنمق الذى يتجلى فى أعمال (يظن أنها سابقة على الإسلام)

---

(١) دراسات المستشرقين ـ صـ ٩٦ .
(٢) ينظر ـ دراسات المستشرقين ـ صـ ١٠١-١٠٩
(٣) السابق ـ صـ ٦١

إذا كان الأمر كذلك فإن من العصب إثبات صحة دعوى إعجاز فصاحة القرآن ، لأنه حينئذ يكون مشابها أو قريبا مما لديهم " [١] .

فهو يريد أن يقول : لو كان لدى القوم المعاصرين لبداية الدعوة ـ أشعار كتلك التى وصلتنا ، لكان القرآن تحداهم بجنس ما عندهم من أدب لو كان الأمر كذلك لفهم الناس إعجازه البيانى بسهولة ، ولما لم يكن الأمر كذلك فإن المرجح أن الشعر الذى وصل إلينا إسلامى متطور عن أساليب القرآن .

ـ كثرة الجدل الذى أثاره القدماء حول **نشأة الشعر** العربى ونسبتهم شعر إلى أقوام بادت ، وكثرة الشعر والشعراء فى هذه الفترة بصورة لم تشهدها بلاد الإغريق ذات التاريخ الأدبى العريق ، فهل كان العرب يعيشون فى هذه الفترة فى مجتمع أدبى على هذا النحو من العلوم والتقدم والازدهار الأدبى يفوق بلادَ الإغريق .

ـ إن هذا الشعر المنسوب إلى العصر الجاهلى لا يمثل الحياة الوثنية التى كان يحياها هؤلاء القوم ، فليس فيه ما يشير إلى إلهة القوم المتعددة ، أو عباداتهم ، أو إلى أى عقائد من أى نوع . كما أن به كثيرا من المفردات والتراكيب والأفكار التى تضمنها القرآن الكريم . وما فى هذا الشعر من أعمال الله وصفاته والحياة الآخرة لا يختلف كثيرا عن التصور الإسلامى وذلك ما نجده فى شعر عَبيد بن الأبرص ، وامرئ القيس وعنتره العبسى وغيرهم . لقد تضمنت بعض القصائد المنسوبة إلى هذا العصر " دعوة لعبادة الله خالقهم وحده " وهذه الدعوة تناقض القرآن من أن المكيين لم يكن لهم منذر قبل محمد " [١] .

ـ لقد كان للعرب قبل الإسلام لهْجات قبلية متعددة كما كان هناك اختلاف واضح بين لغة الشمال ولغة الجنوب كما تشير النقوش المختلفة، ومع هذا التعدد والاختلاف نجد أن الشعر العربى الذى وصل إلينا من القبائل المتعددة ومن الشمال والجنوب ، قد جاء بلغة واحدة هى لغة قريش التى نزل بها القرآن الكريم ، وليس بين أيدينا ما يشير إلى سيادة هذه اللغة بوصفها لغة للأدب ، نظمه ونثره ولا إلى توحيد اللهجات واللغات فى لغة واحدة قبل نزول القرآن مما يدل على أن هذا الشعر إسلامى ، لغة ، وفكرًا ، وشعرا . والكمية الكبيرة من النقوش التى ترجع إلى ما قبل الإسلام والتى نملكها الآن مكتوبة بعدة لهجات ، ليس فيها شئ من الشعر ، ولا يمكن أن نستنتج من النقوش العربية أنه كانت لدى العرب أية فكرة عن النظم أو القافية " [٢] .

فمرجليوث يقر بأنه كانت للعرب أشعار قبل الإسلام ، وأنها كانت بلغة غامضة مبهمة ، وأنها لم تصل إلينا لا عن طريق الرواية ولا عن طريق الكتابة ، وهى أشعار وثنية ، وقد نهى الإسلام عن حفظها وروايتها. وأنه

---

[١] ينظر ـ دراسات المستشرقين ـ صـ ١٠٠

[١] أصول الشعر العربى صـ ٦٣

[٢] بدوى ـ صـ ٩٠-٩١

لم يكن للعرب لغة أدبية واحدة قبل نزول القرآن ؛ وأن ما وصل إلينا هو شعر إسلامى فى فكره ولغته ، وأن شعراءه موحدون مسلمون ، لا جاهليون .

٢- وقد تناول هذا الموضوع كثير من الباحثين العرب فى العصر الحديث ، نخص منهم اثنين لقيمتهما التاريخية من ناحية ، ولأن كلا منهما يمثل اتجاها وموقفا من التراث العربى بشكل عام . أما أولهما فهو الأستاذ " **مصطفى صادق الرافعى** " الذى تعرض لموضوع انتحال الشعر الجاهلى ، وذلك فى الجزء الأول من كتابه " **تاريخ آداب العرب** ". ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩١١ قبل مقال "مرجليوث" وكتاب طه حسين بعقد ونصف تقريبا . وقد عَنْون الباب الثانى من الجزء الأول : " الرواية والرُّواة " ، متتبعا الأصول التاريخية للرواية ، مؤمنا أشد الإيمان بأن العرب " كانوا أمة أمية ، لا يقرءون إلا ما تخطه الطبيعة ، ولا يكتبون إلا ما يلقنون من معانيها ، فيأخذون عنها بالحسّ ، ويكتبون باللسان فى لوح الحافظة ، فكان كل عربى على مقدار وعيه وحفظه : كتابا أو جزءًا من كتاب " [١] .

وبعد أن أصَّل الحفظ والرواية قبْل مجئ الإسلام ، انتقل إلى الرواية فى الإسلام ، بادئا برواية الحديث الشريف ، ثم الأدب ودوْر الحفظ والحفظة ، ومشاهيرهم ، ومقدار حفظهم ، ومكانتهم ، وعلم الرواية . وأنواعها ، ومجالاتِها ، وضوابطها ، ومصادرها ، ورحلة العلماء إلى البوادى ، والقبائل التى يُنْقَل عنها ، والاحتكام إلى الأعراب وفصحائهم . والوضع والصنعة فى الرواية بشكل عام .

وحين وصل إلى وضع الشعر : (٣٥١/١ ..) ذكر أن حفظ الشعر وروايته كان ضرورة حياتية للجاهليين ، وقد كان لهم رُواتهم منذ القدم ، فالعرب كاليونان فى هذا " فقد كان عند قدماء اليونان ـ لبعض الأسباب المعنوية التى تشابهوا فيها هم .. والعرب رواة **يتفرغون** لنقل الشعر ، ويقيمون فى الناس على إنشاده ، ويروون قطعا من التاريخ "[١] وينفى عن الجاهليين أسباب وضع الشعر ونحله . " فلم يكن من سبب فى جاهلية العرب يبعثهم على وضع الشعر ونحله غير قائله ، وإرساله فى الرواية على هذا الوجه ؛ لأن شعراءهم متوافرون ، ولأنهم لا يطلبون بالشعر إلا المحامد والمعاير ، وقصارَى ما يكون من ذلك أن يتزيد شاعرهم فى المعنى ، ويكذب فيه إذا هو حاول غرضا ، أو أراد معنى مما تلك سبيله .. وهذا التزيد هو الذى يُسميه الرواة أكاذيب الشعراء ، أما أن يكون فى عرب الجاهليين من يصنع الشعر وينحله غيره على نحو ما كان فى الإسلام ، فذلك ما لا نعلمه ولا نظنه كان البتة " [٢] .

وحين ينتقل إلى الوضع والانتحال فى الإسلام ، ينقل عن ابن سلام كل ما ذكره عن الوضاعين ، والوضع ، وأسبابه ، ومنها الاتساع فى رواية الشعر : " وهو سبب من أسباب الوضع ، يقصد به فحول الرواة أن يتوسعوا فى روايتهم فيستأثروا بما لا يُحْسن غيرهم من أبوابها ، ولذا يضعون على

---

[١] تاريخ آداب العرب : ٢٧١/١ ـ دار الكتاب اللبنانى ـ ط : ٤-١٩٧٤

[١] السابق : ٣٥١/١

[٢] الرافعى ٣٥٢/١

فحول الشعراء قصائد لم يقولوها . ويزيدوا فى قصائدهم التى تعرف لهم ، ويدخلون من شعر الرجل فى شعر غيره ، هوًى ، وتعنُّتًا ، ورأس هذا الأمر حماد الراوية الكوفى ، المتوفى عام ١٥٥ هـ ، وقد لُقب بالراوية لهذا الاتساع "[١] .

وكان حماد أول من جمع أشعار العرب ، وساق أحاديثها فلا جَرَم أنه كان رأس الوضاعين لما يقتضى لصنعة الجمع الذى يراد به الاتساع والاستئثار من الزيادة فى شعر المقلّ حتى يكثر ، ونسبة ما يكون للخامل من الشعراء إلى المشهور حتى يُروى فى شعره ، ونحو ذلك "[٢] ، ثم يقول شيئا قريبا من هذا عن خلف الأحمر (ت : ١٨٠) إذ "ليس فى الرواة جميعا من يدانى حمادًا وخلفا فى الصنعة ـ وإحكامهما ، فهما طبقة فى التاريخ كله "[٣] . وقد يكون لغيرهما زيادة البيت الواحد ، والأبيات القليلة من مثل : أبو عمرو بن العلاء ، والأصمعى ، وأبو عبيدة ، واللاحقى ، وقُطْرُب .

ثم يبين الرافعى طرق الزيادة . " قد يجد الرواة للشاعر الأبيات الحسنة فى المعنى الجيد ، وهى تحتمل الزيادة ، فيضعون عليها ويولدون حتى تبلغ قصيدة "[٤] . وقد يزيدون فى القصيدة ويُبْدعون بآخرها متى وجدوا لذلك باعثا . قال الأصمعى : " أقمت بالمدينة زمانا ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة ، إلاّ مصّحفة أو مصنوعة "[٥] . ويذكر شيئا من أسباب اختلاف الروايات فى الشعر ، ولا يراه انتحالاً ، بل هو أمر يتصل باللهجات أو الاستحسان . " فقد كان العرب ينشد بعضهم شعر بعض ، ويجرى كل منهم فى النطق على طبعه ومقتضى فطرته اللغوية ، فمن ثم يقع الاختلاف الصرفى واللغوى الذى نراه فى بعض الروايات . وقد يغير العربى فيما يتمثله من الشعر كلمة بأخرى يراها أليْق بموضعها ، وأثْبت فى معناها " فهو تفاوت في الاستحسان . ومن الرواة من كان يغير فى ألفاظ بعض الأبيات لتوجيه حجة ، وإنهاض دليل "[١] .

ولم يتخذ الرافعى من هذه الأقوال موقفا ، بل ترك الأمر لمن يحلل كما أنه اكتفى بما ذكره القدماء من أسباب النحل والوضع وهى تتلخص فى تزيد القبائل فى أشعارها بعد أن راجعت العرب شعرها كما مر ، وحاجة اللغويين والمفسرين والإخباريين ، وأصحاب المذاهب وأهل الفرق إلى ما يؤيدهم من الشعر القديم ، وهذا الاتجاه الذى رأيناه عند الرافعى ، وهو الاكتفاء بذكر ما ذكره القدماء دون مناقشته ، وهو موقف يوحى بالرضا عنه وتأييد ما جاء فيه ، وهو موقف سلفى فى مظهره ، نجده عند كثير من شيوخنا . على حين أدت هذه الآراء ببعض المحدثين ـ من العرب وغيرهم ـ

---

[١] تاريخ آداب العرب : ٣٦٣/١
[٢] السابق : ٣٦٤/١
[٣] السابق : ٣٦٧/١
[٤] السابق : ٣٦٨/١
(٥) السابق : ٣٩٦/١
(١) نفسه : ١ / ٣٧٣

إلى الشك فى صحة الشعر الجاهلى ، حتى بالغ بعضهم فأنكره جملة ، وهى مبالغه لا تقوم على أسانيد علمية كما سنرى .

٣- أما الدكتور طه حسين فلم يقف من النصوص والروايات والآراء التى ذكرها القدماء موقف الرافعى ، بل اعْتقد بهذه الآراء ، وبأقوال العلماء فى الرواية وفى أنفسهم ، ولم يقف طويلا عند رفضها أو الشك فيها ، بل اتكأ عليها فى رفضه أغلب الشعر الجاهلى والتشكيك فيما بقى ، حيث قرر " أن الكثرة المطلقة مما يسمى أدبا جاهليا ليس من الجاهلية فى شئ ، وإنما منحولة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وأهواءهم ، أكثر مما تمثل حياة الجاهليين .

ولم يكن اعتماده على ما قاله القدماء فقط ، بل عضّد ذلك بما استنتجه من النصوص الشعرية ، فهى فى جملتها **لا تمثل** ـ عنده ـ شيئا من حياة الجاهليين السياسية والاجتماعية والدينية والعقلية كما **أن اختلاف اللغة** بين الشمال والجنوب ، وتعدد اللهجات فى كل منهما ، كان من شأنه أن يكون له أثر واضح فيما وصل إلينا من أشعار ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، بل جاءت الأشعار كلها بلغة واحدة ، هى لغة قريش التى نزل بها القرآن . ولم يُعرف بعدُ إن كانت للعرب فى ذلك الوقت لغة فصحى واحدة، كما أن الزعم بسيادة اللغة العدنانية أمر لا يتفق مع الواقع ، حيث كانت السيادة السياسية والاقتصادية للقحطانيين ، وذلك من شأنه أن يفرض السيادة اللغوية أيضا .

١- أما أسباب النحل كما يراها الدكتور طه حسين فمردها إلى السياسة ، والدين ، والنزعة الشعوبية بين العرب والموالى ، والرواة والقصاص ، **أما السياسية فتتمثل** فى العصبية بين مكة والمدينة منذ بدأ النزاع على الخلافة وما تلا ذلك من خلافات بين بيوتات قريش ، أو بين القبائل والفروع المختلفة ، وبعد أن فصّل القول فى هذا المبحث ختمه بقوله : " ومهما يكن من شئ فإن هذا الفصل الطويل ينتهى بنا إلى نتيجة نعتقد أنها لا تقبل الشك ، وهى أن العصبية وما يتصل بها من المنافع السياسية ، قد كانت من أهم الأسباب التى حملت العرب على نحل الشعر للجاهليين .. ونحن لا نقف عند استخلاص هذه النتيجة وتسجيلها وإنما نستخلص منها قاعدة علمية ، وهى أن مؤرخ الآداب مضطر حين يقرأ الشعر الذى يُسمى جاهليا أن يشك فى صحته كلما رأى شيئا من شأنه تقوية العصبية ، أو تأييد فريق من العرب على فريق " [١]

٢- وأما الأسباب **الدينية** فمنها ، إثبات صحة النبّوة وصدق النبى (وإرضاء العامة الذين يريدون المعجزة فى كل شئ) وتعظيم أسرة النبى ونسب قريش [٢] ، وتفسير ما فى القرآن من أخبار الأمم السابقة [٣] ، ودراسة القرآن دراسة لغوية ، وحرص العلماء على الاستشهاد بالشعر لإثبات عروبة ألفاظ القرآن الكريم ، ومحاولة أصحاب المذاهب إثبات مذاهبهم ، والاستدلال عليها بشئ من شعر الجاهلية ، كما نجده عند

---

[١] فى الأدب الجاهلى ـ صـ ١٣٢ – ط : ١٦ دار المعارف : ١٩٨٩

[٢] السابق : ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩

[٣] السابق : ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩

المعتز له وخصومهم [٤] ، وكذلك تعصب يهود الجزيرة ومسيحييها لشعرائهم ، فنسبوا إليهم شعرا كثيرا كما فعل غيرهم . " فليس من المعقول أن ينشر هذان الدينان فى البلاد العربية دون أن يكون لهما أثر ظاهر فى الشعر العربى قبل الإسلام . وقد رأيت أن العصبية العربية حملت العرب على أن ينحلوا الشعر ويضيفوه إلى عشائرهم فى الجاهلية بعد أن ضاع شعر هذه العشائر ، فالأمر كذلك فى اليهود والنّصارى . تعصبوا لأسلافهم من الجاهليين .. فنحلوا كما نحل غيرهم ، ونظموا شعرًا أضافوه وإلى السموءل وإلى عدى بن زيد وغيرهما من شعراء اليهود والنصارى " [٥]

٣- وثالث هذه الأسباب القصص العربى ، وطبيعته التى تعتمد على الشعر اعتمادًا كبيرا ، وبدونه تفقد أهم عناصرها وهو التشويق ، وحين لا يجد هؤلاء القصاص ما يناسب حكاياتهم وأحاديثهم يكلفون من يضع لهم الأشعار المناسبة " وأنت تعلم أن القصص العربى لا قيمة له ، ولا خطر فى نفس سامعيه إذا لم يزينه الشعر من حين إلى حين " [١] .

" ومن هنا نستطيع أن نقف موقف الشك ـ إن لم نقف موقف الإنكار الصريح ـ أمام هذا الشعر الذى يضاف إلى الجاهليين ، والذى هو فى حقيقة الأمر تفسير أو تزيين لقصة من القصص ، أو توضيح لاسم من الأسماء ، أو شرح لمثل من الأمثال .. وكل ما يروى عن الأمم السابقة موضوع لا أصل له . وكل ما يروى عن أيام العرب وحروبها الكثيرة موضوعة من غير شك . وكل ما يروى من هذه الأخبار والأشعار التى تتصل بما كان بين العرب والأمم الأجنبية قبل الإسلام ـ كثرته المطلقة موضوعة من غير شك " [٢] .

٤- والسبب الرابع من الأسباب التى يسوقها طه حسين ، هو الخصومة بين العرب والموالى ممن سموا بالشعوبيين ، حيث يقول : " أما نحن فنعتقد أن هؤلاء الشعوبيين قد نحلوا أخبارًا وأشعارًا كثيرة وأضافوا إلى الجاهليين والإسلاميين ، ولم يقف أمرهم عند نحل الأخبار والأشعار ، بل هم قد اضطروا خصومهم ومناظريهم إلى النحل والإسراف فيه [٣] ". " فالشعوبية فى مظهرها السياسى الأول قد حملت الفرس على النحل بمثله " فقد كانت الشعوبية تنحل من الشعر ما فيه عيب للعرب وغض منهم . وكان خصوم الشعوبية ينحلون من الشعر ما فيه ذود عن العرب ، ورفع لأقدارهم " [١] فقد وضع كل فريق ما يؤيد رأيه فى الفريق الآخر .

٥- وآخر هذه الأسباب ـ عند طه حسين ـ يتعلّق بالرواة وما أشيع عنهم من مجون وفسق، وإسراف فى اللهو .. واللعب، وانصرافهم عن أصول الدين ، وقواعد الأخلاق ، إلى ما يأباه الدين ، وينكره الخلق،

---

[٤] السابق : ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩

(٥) فى الأدب الجاهلى ـ صـ ١٤٦

(١) السابق ـ صـ ١٥١

(٢) فى الأدب الجاهلى صـ ١٥٩

(٣) السابق ـ صـ ١٦٠

(١) السابق ـ صـ ١٦٥

والتكسب والتقرب إلى الأشراف والأمراء ، والظهور على الخصوم والمنافسين ، كل هذه الظروف التى أحاطت بهم حملتهم على الوضع والكذب والنّحل . فهو يقول عن كل من حماد وخلف " وكان كلا الرجلين مسرفا على نفسه ، ليس له حظ من دين ولا خلق ولا احتشام ولا وقار ، وكان كلا الرجلين سكيرًا فاسقا مستهترا بالخمر والفسق ، وكان كلا الرجلين صاحب شك ودعابة ومجون " [٢] . ثم يضيف إليهما " أبا عمر الشيبانى " . حتى الرواة الذين " لم تفسد مروءتهم ولم يعرفوا بفسق ولا مجون ولا شعوبية كذبوا أيضا .. ونحلوا " ويذكر منهم أبا عمرو بن العلاء والأصمعى واللاحقى " [٣] . لكنه البيت والبيتان . ثم يختم الفصل بالدعوة إلى إعادة النظر فى الشعر الجاهلى . " فخير لنا أن نجتهد فى أن نعرف ما يمكن أن تصح إضافته إلى الجاهليين من شعر ، وسبيل ذلك أن ندرس الشعر نفسه فى ألفاظه ومعانيه بعد أن درسنا ما يحيط به من الظروف". [٤]

وكما شك الدكتور طه حسين فى الشعر الجاهلى بعامة خصص عددا من الشعراء لبيان الشك فى شعرهم ومن هؤلاء امرؤ القيس وعلقمة بن عَبدة ، وعَبيد بن الأبرص ، وعمرو بن قَميئة ، ومُهَلْهِل بن ربيعة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة ، وطَرفة بن العبد ، والمُتَلَمِّس والأعْشَى ، وساق مبررات شكه فيهم ، وأهمها غموض حياتهم .

ومن الممكن أن نلخّص أسباب الشك عند القدماء والمحدثين بشكل عام مع التفاوت بينهما فيما تذكره **وهذه الأسباب ترجع إلى :**

ـ التنافس بين القبائل لإثبات الأيام والمفاخر وتأصيل الأمجاد .
ـ الرواةَ بشكل عام سواء المحترفين منهم وأبناء البادية وأصحاب السِّير
ـ إنكار معرفة الجاهليين الكتابة والتدوين .
ـ إن الإسلام نفر من الشعر ، وقطع كل وشيجة بين الناس والعصر الجاهلى .
ـ اختلاف اللغات وتعدد اللهجات عند عرب الجاهلية .
ـ إنه شعر لا يمثل الحياة فى أى جانب من جوانبها .
ـ فُقْدان النموذج القديم المعترف به الذى نسج الشعراء على منواله .

---

(٢) فى الأدب الجاهلى صـ ١٦٩
(٣) السابق ـ صـ ١٧١
(٤) السابق ـ صـ ١٧٣